إرَادةٌ أُخرى لِمَا قـد "يَتَكرَّر"!!

وسيم الكردي

(1)

لم نقتنص الحرب الأخيرة علينا كي توحدنا، بل اقتنصناها لتزيدنا انقساماً. لم نقتنص لحظات الموت كي نلملم جراحاتنا، بل أمعنا في التشظية وبعثرة الأشلاء. لم نقتنص لحظات الصمود والثبات كي تغدو إكسيراً يبث فينا حياة لمجابهة زمن قادم تبدو "بشائره" لائحة في الأفق . . . وأي أفق! لقد اقتنَصَنا أعداؤنا كما لم يقتنصونا من قبل، فأمعنوا قذفاً وجرفاً . . . وأوغلوا في دمنا. ونحن نمعن في إعمال السيف في جراحاتنا . . . وتحويلها إلى بيارق لرغباتٍ آخر ما فيها مصلحة البلاد والعباد. وكثيرون ممن حولنا يتاجرون بما ليس لهم منا وفينا، ومع ذلك نسلمهم رقابنا، فيسوحون بها في كل عاصمةٍ وقاصمة . . . لنغدو موزعين "بين ثكنتين"، أو لنكن أكثر اقتراباً من المعنى لنقول "بين موتين"، وكأننا لا نصلح للعيش إلا إذا تحولنا إلى بيادق، . . . . إن هذا التحوّل يحدث كما لم يحدث من قبل، فهل لنا أن نتركه يُعمِل فينا خراباً أم أن لنا فينا ما يضمد جراحنا، ويشيِّد معنوياتنا، ويبث فينا طاقة انبعاث وحيوية وتجديد؟

(2)

ينبغي علينا أن لا نعلّق غدنا على «آمالنا» وحسب، إن «الأمل» الآن يغدو مقصلة لأنه احتماء بغد نتضرع إلى أن يأتي بأفضل مما أتى، لن يحمل لنا غدنا أيَّ خير إذا لم نزرع نبتة في هذا الدمار، وأن نراها شجرة بعد جيل وجيلين وثلاثة، على خيط الأمل أن يتضفر بفعلٍ من طرفه الآن ومن وسط الركام. هناك صور بالأبيض والأسود منذ ما بعد النكبة؛ واحدة منها لأطفال فلسطينيين يدرسون في مدرسة في العراء، وإمعاناً في السريالية فقط، نصبت في وسط «العراء» يافطة كتب عليها «مدرسة»، فقط مدرسة، كلمة واحدة تكفي. والثانية لأطفال في صف في خيمة. إننا بتنا بعد هذا الدمار الذي أحدثَ في قطاع غزة نرى صوراً أخرى لما يشبه تلك الصور التي كانت قبل أزيد من 60 عاماً. في تلك الصورتين ما يحفز الأمل، لكن قيمة أن نعيد ما تدمر، وكأننا نعيد ما كان، بإمكاننا أن نثبت لأنفسنا ولغيرنا، والأهم لأجيالنا الطالعة من وسط الركام، أن بإمكاننا أن نفعل أكثر من أن «نعيد بناء» ما دمرته الحرب، يمكننا أن نبني بأفق جديد، بأفق يرى ما لا يُرى في التو واللحظة ولكنه يُستَشرَف.

(3)

في مؤتمر مركز القطان الأول حلَّ علينا ضيف إنجليزي، وقدَّم مداخلة انبنت على تجربة مدرسة إيطالية اسمها مدرسة "ريجيو إميليا" (Reggio Emilia)؛ وهو اسم لمدينة إيطالية نشأت فيها هذه المدرسة؛ فما قصة هذه المدرسة كي تكون مناسبة لما يجري في بلادنا هذه الأيام؟ تُعتبر هذه المدرسة واحدة من أهم المدارس في عالمنا الراهن، وتقوم في تجربتها على مبادئ نوعية في التعليم، وفي النظرة إلى الطفل والمعلم، وفي إقامة مشروعات تعليمية متنوعة، ويقتدي بتوجهاتها العديد من المدارس في أنحاء مختلفة من العالم، إنها، باختصار، مدرسة مميزة الآن، لا تقدم عملها لأطفالها فحسب، بل لمحيطها وللعالم، إنها مدرسة تسهم في تغيير نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى علاقته بالآخرين، إلى تعلمه وإلى بيئته ومجتمعه والكون. ولكن كيف نشأت هذه المدرسة؟ وهنا قصتنا تتضافر مع قصة هذه المدرسة؛ فقد أنشأتها سيدات إيطاليات في حي مدمر تماماً، وفي بيت آيل للسقوط أكلته القنابل، فجمعن أطفال الحي لتدريسهم في هذا المكان "كمدرسة" لا تبدأ من الصفر، بل تبدأ من الرغبة والإرادة والتطلع، فكن يرين ما الذي ستكونه هذه البداية بعد خمسين عاماً، ولم يكن يرغبن في افتتاح مدرسة للأطفال بعد انتهاء الحرب وحسب، بل كن ينظرن إلى ما سيكون عليه وقع فعلهن اليوم بعد عقود وعقود، بعد خمسين عاماً مثلاً أو مئة عام. فهل هو الإصرار، المثابرة، تقدير الحياة، التفاؤل، الطموح، الأفق، . . . إنه كل ذلك وغيره، ولكن أهم ما فيه أنهن بدأن بداية متواضعة جداً، ولم ينتظرن شيئاً أو أحداً، بل بدأن مباشرة في اليوم الأول التالي لليوم الأخير في الحرب العالمية الثانية، في فناء غير صالح للتعليم، وفي ظروف نفسية واجتماعية واقتصادية قاسية، ومع ذلك لم تكن فضيلتهن أنهن بدأن فقط وتجاوزن الواقع القاسي فقط . . . لقد تضافر مع ذلك بعد النظر؛ فإن ما نقوم به الآن نراه أساساً لما سيكون عليه الغد وبعد الغد وبعد مئة عام. إن قصة هذه المدرسة التي نراها اليوم ما كان لها أن تكون لولا تلك الروح التي بثتها سيدات الحي المبادرات في ذلك اليوم الأول الذي تلا يوم اندحار القوات النازية والفاشية وهزيمتها.

(4)

بعد النكبة (قبل واحد وستين عاماً) أقام فلسطينيون مدارس في العراء وفي الخيام، كانوا يرون أهمية استمرارهم في الحياة وأهمية التعليم كمستقبل لأبنائهم، وتعاقبت أجيال حملت ما جرى لها ولوطنها بين ضلوعها، اجتهدت فأصابت وأخطأت. وها نحن اليوم بعد واحد وستين عاماً نرى مدارس في العراء وفي خيام، فلن يكفي ما فعله الأجداد قبل واحد وستين عاماً، بل ينبغي أن نرى فيما نفعله اليوم ليس ما سيكونه أبناؤنا أفراداً وحسب، بل ما نسهم فيه اليوم ليكون جذراً لما ستكون عليه مدرستنا، بل لما سيكون عليه مجتمعنا بعد واحد وستين عاماً.

(5)

أطفالنا سيعودون إلى حياتهم، وربما بأسرع منا، سيحملون معهم آلاماً وذكريات . . . محزنة ومؤلمة وقاسية، وستلقي بأثرها عليهم الآن وعلى غدهم، سيحملونها معهم كعبء أو كطاقة، كإحباط أو كحيوية، وقد يختلط هذا بذاك ما بين وقت وآخر وتجربة وأخرى، ولكن ينبغي أن يكون ما نفعله اليوم باثاً لطاقة الغد وحيوية المستقبل. فما الذي ينبغي أن نراه نحن الكبار؟ وما الذي ينبغي أن نفعله نحن الكبار؟ هناك أفعال طارئة وسريعة ينبغي عملها، من الإشفاء، إلى تجاوز الآلام، إلى التفريغ العاطفي والانفعالي، إلى كشف واستكشاف ما الذي جرى ولماذا جرى . . . الخ، ومع أن كثيرين يتنطعون لذلك دون معرفة بل «كموضات خلال الحرب وما بعدها»، إلا أن انخراط الأطفال في نشاطات كهذه لن يضير كثيراً إن لم يفد قليلاً. ولذلك فعلينا أن ندرك أن في الإنسان/ الطفل أكثر من شحنة عاطفية هنا ومعلمة ينبغي إلصاقها هناك، إن التصدي لما يجري يقتضي تغييراً كبيراً في نظرتنا وفي أدائنا، فنرى الأشياء في علاقاتها، وضمن سياقات فعلها، فنعلم الأطفال ذلك كما نتعلمه أيضاً.

(6)

ما نحتاجه هو أبعد من ذلك! أبعد كثيراً من ذلك! وهذا دورنا كمعلمين، وهو دور كبير، وإلا كيف يمكن لعملية تعليمية أن تستوي، وتعود إلى «طبيعتها» مع بعض «تفريغ نفسي» هنا و«إشفاء انفعالي» هناك على أهمية ذلك؟ إن حرباً مدمرة كمثل هذه الحرب التي شُنت علينا وما سبقها وما قد يأتي لاحقاً، ينبغي أن يدفع بنا كمجتمع إلى تنظيم حياتنا بما يكفل لنا الصمود والثبات والمثابرة والإنتاج، لأن الأمر ليس مسألة شهور وسنوات، بل قد يمتد عقوداً وعقود. ومن بين ما ينبغي الالتفات إليه دورنا اتجاه أطفالنا، بما في ذلك مدارسنا، علينا إعادة مساءلة دورنا ودور مدارسنا بكليته، وليس أن نعود، بعد أن «وضعت الحرب أوزارها»، فقط إلى الكتب المدرسية والحجر الصفية، وكأن فيها «العلم»، وأن ما جرى في الحرب لن يكون إلا «للعلم» بالأمر، وهو خير من الجهل به.

(7)

كيف يمكن لنا أن نستمر في الثبات، وفي الاقتراب من حقوقنا؟ أن نتجاوز حالة انقسام شرَّختنا جغرافياً وسياسياً وربما معنوياً، وأن لا نترك للنعرة الفئوية الحزبية الضيقة أن تجرنا مهما بدت مطامحها "سامية" وغاياتها "نبيلة" ومصالحها "مشروعة" فهي لن تتجاوز كونها مطامح وغايات ومصالح لا سند قوياً وفعلياً لها من الناس كي تغدو حقائق، وسيغدو الانقسام وصفة مثالية ليغدو مشروعنا الوطني في مهب الريح (وهو كذلك الآن). فما الذي ينبغي علينا عمله كي نستعيد بعضاً من عافيتنا المجتمعية التي بنيت عبر عقود طويلة، وفي أقل من عشر سنوات تمزقت برصاص الفئوية وهراوات السيطرة كما تشظّت بقذائف عدونا وصواريخه. فكيف يمكن لنا أن نعلم أطفالنا مثلاً أن لا يصطفوا اصطفافاً "أعمى" مع فريق دون فريق، وأن لا يكونوا في يوم من الأيام جزءاً من قطيع، بل لكل منهم رأي وموقف، ولا يمكن سوقه تحت بيرق شعارات زائفة، بل عبر تفاعل اجتماعي متنوع يتيح للجميع أن ينخرط وأن يعبر، لا أن يُسحَق لأنه مختلف، وأن يكمم لأن له صوتاً مغايراً. المجتمع يحتاج لكل من فيه، يطورون معاً وجودهم وصمودهم وحيويتهم وحاضرهم ومستقبلهم.

(8)

وكما حذرت من الوقوع في فخ الأمل فقد وقعت فيه، ولعلي أستدرك وأقول: طبعاً هذه أمنيات وآمال! لا تنعقد إلا بفعل، وكل فعل مهما كان صغيراً ومحدوداً فهو فعل يبني ويحقق تغييراً ما، فإن لم تكن لدينا «الإرادة» في ظرف كهذا، أحسن ما يمكن أن يكون منظاراً يعبر عن نظرتنا إليه قول غرامشي «تشاؤم العقل تفاؤل الإرادة». إذا كانت لدينا ككبار، فيمكن أن نعلمها لأطفالنا أو نحاورها معهم وأن نراها فيهم! أما إذا افتقدناها فعلينا أن نجتهد كثيراً لتكون، ولنتخذ خطوتنا الجريئة الأولى، ونعلم أطفالنا أن يكونوا هم لا أن يكونوا صوراً متشابهة، وأن ندافع عن وجودنا الوجودي بمقاومة محاولات تفتيتنا، ومن ثم تدجيننا، وأن ندفع عنا محاولات تحويلنا إلى قطيع اجتماعي يساق إلى حلبة «النحر» أو ساحة «الإنشاد».

وسيم الكردي – مدير مركز القطان